جولة في أعمال عبد الرحمن مجيد الربيعي:

كتابة ترمم خرائب الذاكرة

إبراهيم أولحيان*

■ ينتمي الروائي والقاص عبد الرحمن مجيد الربيعي إلى جيل الستينيات؛ هذا الجيل الذي وجد نفسه في منعطف صعب من تاريخ الإنسان العربي، وهو ما جعل مهمته شاقة لأنه يواجه أوضاعا موبوءة، بسبب الاستعمار أو مخلفاته الخطيرة، والأنظمة الحاكمة الجائرة، والهزائم المتتالية.. كل ذلك وغيره أورث جوا من الإحباط، والإحساس بنوع من الانكسار، خصوصا أن الأحلام والآمال تم وأدها، ولم يعد أمام الشعوب في زمن الخيبات والإخفاقات سوى انتظار الخلاص، ولم يعد أمام النخبة المثقفة سوى المقاومة، وفتح جبهات الحرب، سواء من خلال النضال السياسي أو عبر الكتابة بجميع أشكالها وأنواعها..

وبما أن مرحلة الستينيات ورثت الجمود وامتداح التقليد، والتصفيق للدوسكا، ومحاربة كل ما هو مختلف وجديد، وبما أن الأشكال التعبيرية قد استنفدت ولم تعد قادرة على التعبير على هذا الواقع، وعلى طرح قضاياه في تشابكاتها واهتزازاتها، فإن جيل الستينيات من كتاب وروائيين وقاصين، وفنانين.. قد لامسوا خطورة هذا الوضع، وأحسوا بالضيق، سواء على مستوى الواقع أو على مستوى الكتابة، فبادروا إلى التصدي لهذه الممارسات، وضربوا بقوة في اتجاه البحث عن أفق.. فكانت الأشكال التعبيرية الحداثية التي بدأت تتشكل في الثقافة العربية منذ الأربعينيات، ووجدت لها صدى لدى الجماهير، ونعني بذلك شعر التفعيلة، والقصة القصيرة، والرواية.. هي ملاذ مجموعة من المبدعين الحداثيين الذين أحسوا قدرة هذه الأجناس الأدبية على رصد هذا الواقع وتفجيره، والوقوف على طياته، والقبض على المنفلت والمسكوت عنه في الخطابات والممارسات..

ولقد اعتبر عبد الرحمن مجيد الربيعي أهم الروائيين في العراق، في هذه الفترة، إلى جانب غائب طعمة فرمان، فؤاد التكرلي، جبرا إبراهيم جبرا، ولذلك نجد الدكتور نجم عبد الله كاظم في كتابه «الرواية في العراق 1965ـ1980» يعتمد في تحليل الرواية العراقية على هذه النماذج، يقول، أثناء حديثه، في مقدمة الكتاب، عن المتن المعتمد ما يلي: «تناولت في القسم الأول (..) أعمال أربعة روائيين وجدتهم الممثلين الرئيسيين والحقيقيين لصورة الرواية في الستينيات والسبعينيات».

ـ2ـ

أصدر عبد الرحمن مجيد الربيعي لحد الآن ست روايات هي كالتالي : «الوشم» (1972)، «الأنهار» (1974)، «عيون في الحلم» (1974)، «القمر والأسوار» (1976)، «الوكر» (1980)، «خطوط الطول.. خطوط العرض» (1983). روايات ترصد الواقع العراقي في تحولاته، وتغيراته، وتسجل بعمق الارتجاجات التي حدثت في العراق، وأصابت الناس في طموحاتهم وأحلامهم، ولأن الهم الذي يسكن الربيعي هو الكتابة بصدق، فإنه التزم تسجيل الأحداث والتأريخ لها، وفتح منفذ لفهم ما وقع وما يقع دون مورابة أو هروب، ووضع الأصبع على الجرح، وكل نص روائي يكتبه عبد الرحمن مجيد الربيعي يتبع استراتيجية روائية مختلفة سواء على مستوى الزمن أو الرواية أو السرد، لكن ما يجمع هذه النصوص هو تجسيدها لهذه الولادة العسيرة لمجتمع جديد، وبالتالي إنسان جديد يتوق إلى الخروج من القهر والظلم والبؤس الذي يتخبط فيه، وذلك من خلال مقاومة شديدة لأجهزة الأنظمة التي تعاقب كل من يخرج من «بيت الطاعة»، وقد استطاع الربيعي أن ينقل إلى عالمه الروائي هذه الأشياء من خلال مصائر الناس، وعلاقاتهم اليومية، ومن خلال خيباتهم وأحلامهم أي ما يعيشونه وما يطمحون إليه، ووصف بدقة الإحباط الذي أصاب الإنسان، ونعني هنا النخبة المثقفة الواعية بالخيبة والسقوط، وانتقد بشدة هذه الأوضاع عبر شخصياته الكثيرة، والمختلفة من حيث انتمائها الطبقي، ومن حيث تفكيرها ووعيها، ونظرتها إلى الأمور والأوضاع.. فمن منا لا يتذكر كريم الناصري بطل رواية «الوشم»، التي عالجت في فترة مبكرة موضوعة الاعتقال، وشخصيات أخرى كانت مرآته العاكسة مثل مجيد عمران وأسيل عمران، وحسونة السلمان، وسعيد مهران.. وبطل رواية «الأنهار» صلاح كامل وشخصيات أخرى نذكر منها خليل الراضي، إسماعيل العماري، سعدون الصغر وغيرهم؛ أما بطل الرواية المتاهية «خطوط الطول.. خطوط العرض» فهو غياث داوود إلى جانب كامل السعدون، مروان حيدر، سميرة حليم، سامي المنذر، عمر الماجري.. الخ، شخصيات لا يمكن لمن قرأ روايات عبد الرحمن مجيد الربيعي أن لا تهزه، وتترك وقعها فيه، لأنها تخاطب العقل والوجدان، ولأن الروائي استطاع أن يحبك الخيوط التي تربط بينها ببراعة فائقة، ولا أدل على ذلك سوى رواية «خطوط الطول.. خطوط العرض» التي تزخر بالشخصيات، واستطاع الربيعي أن يتحكم فيها، ويلم خيوطها في بناء روائي محكم ودقيق..

لقد كانت السياسة هي محور روايات عبد الرحمن مجيد الربيعي، لذلك جاءت رواياته ذات أبعاد واقعية، تجمع بين التسجيلي والتاريخي، وكل رواية من رواياته ترصد فترة معينة من تاريخ العراق، فـ«الوشم» اعتمدت فترة بداية الستينيات، و«الأنهار» فترة نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، و«الوكر» فترة الستينيات، أما «القمر والأسوار» فرصدت مرحلة ما قبل الستينيات، أي ما بين أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات، أما «خطوط الطول..خطوط العرض» فامتدت إلى بداية الثمانينيات، إلا أنها تعتبر استثناء، سواء على مستوى الزمن (الفترة التي تعالجها)، أو على مستوى المكان (فضاءات اشتغالها) حيث خرجت من الخاص (العراق) إلى العام (البلاد العربية)، فأحداثها تجري ما بين تونس ولبنان والعراق.. ولعل الربيعي لا يقدم على كتابة نص روائي إلا إذا كان سيضيف رؤية جديدة، أو تنويعا في الشكل، لذلك نجد هذا الاختلاف فيما بين رواياته، فمثلا «الوشم» و«الأنهار» اعتمد فيهما البطل الواحد الذي يكون قطب الرحى للشخصيات الأخرى، ومن خلاله تدور الأحداث، أما في «القمر والأسوار» فهي خالية من البطولة الفردية، حيث ترصد حياة ناس في زقاق شعبي والبطولة هنا بطولة جماعية، وحتى حين كان يعتمد البطل الفرد، فإنه كان يوظفه توظيفا مخالفا للروائيين الآخرين، فكثير من الروايات في الستينيات والسبعينيات، كانت تعتمد البطل النموذجي الذي لا يقهر، في حين أن أبطال الربيعي فاشلون ومهزومون، وغير قادرين على مواجهة الصعاب، حيث يجسدون فعلا، الخيبة التي يحسها الإنسان العربي..

إن عبد الرحمن مجيد الربيعي استطاع، فعلا، أن يجسد واقع المجتمعات العربية، المأساوية، ويبرز الجوانب الخفية، والمسكوت عنها، وذلك من خلال وعيه العميق بهذا الواقع وبصراعاته وتناقضاته، والبحث في أعماق المجتمع على العقدة، والتقاط أحلام الناس التي تظهر، فعلا، الأعطاب الحقيقية التي لا يستطيع أي مجال آخر أن يجسدها، إلا الأدب، وخصوصا الرواية بيراع روائي متميز مثل الربيعي..

والجدير بالذكر أن صاحب «الوشم» استخدم مجموعة من التقنيات الروائية الحداثية، وهو ما تطرق إليه الدكتور نجم عبد الله كاظم في كتابه السالف الذكر، في محور «تأثير الرواية الأمريكية في الرواية العراقية»، وبذلك نجده يستخدم الفلاش باك، تيار الوعي، المونولوج الداخلي، الحوار القصير الدال، استعمال الجمل القصيرة، استثمار التقنية السينمائية، توظيف الموسيقى والتشكيل، اعتماد تداخل الأزمنة.. إلى غير ذلك من التقنيات التي كان من الأوائل الذين شغلوها في بناء عالمهم الروائي، لتفجير واقع صلب وعنيد، ومن أجل اكتشافه وفضحه..

ـ3ـ

وإذا كانت آخر رواية صدرت لعبد الرحمن مجيد الربيعي كانت سنة 1983 وهي «خطوط الطول..خطوط العرض»، وإن أشار فيما مرة إلى أن لديه رواية مخطوطة من ثلاثة أجزاء، بعنوان «كلام ليل»، فإنه لم يتوقف، منذ بداية الستينيات إلى اليوم، عن كتابة القصة القصيرة، معشوقته الأبدية، أو كما سماها القاص أحمد بوزفور «طفلته الخالدة»، يكتب القصة كمن يؤدي واجبا، وهو ما جعل عبد الستار ناصر يقول: «عبد الرحمن مجيد الربيعي مجنون قصة»، فرغم كل اهتماماته وانشغالاته تبقى القصة القصيرة سر ماء الكتابة الإبداعية لديه.. ويتفق معظم النقاد في العراق وخارجه على أن الربيعي يعتبر رائد القصة القصيرة في العراق، لأنه خلصها من الجمود والتقليدية التي كانت فيها، وفتحها على الكتابة الحداثية، فجعلته متميزا ومتفردا عما قبله، واستطاع أن يزيح عنها تلك الأساليب المسكوكة، وتلك اللغة المتحجرة، واهتم بجمالية القصة قبل كل شيء، فأبدع تقنيات جديدة مؤسسا بذلك لجماليات جديدة في القصة القصيرة على المستوى العربي، وربما لهذا السبب قال نجيب محفوظ: «عندما قرأت للربيعي أحسست أنني أقرأ لأستاذ في كتابة القصة».

ولعل الفضاءات والتيمات والشخصيات هي نفسها التي تحدثنا عنها في مجال الرواية، حيث الوطن، والمرأة والطفولة، والحب، والجنس، والعلاقات اليومية للناس، والمثقف والكادح، المدينة والريف، القمع والثورة والنضال.. عالم مليء بالحياة، قدمه الربيعي في اثنتي عشرة مجموعة قصصية وهي كالتالي: «السيف والسفينة» (1966)، «الظل في الرأس» (1968)، «وجوه من رحلة التعب» (1969)، «المواسم الأخرى» (1970) «عيون الحلم (1974) «ذاكرة المدينة» (1975) «الخيول» (1976)، «الأفواه» (1979)، «صولة في ميدان قاحل» ( )، «نار لشتاء القلب» ( )، «السومري» (1993)، «امرأة من هنا.. رجل من هناك» (1998)، وتجدر الإشارة إلى أن هذه المجاميع أعيد طبعها عدة مرات، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ونشر الجزء الأول من هذه المجاميع في مجلد.

ولقد قسمت المستشرقة الإسبانية ماريسا بريتوكونثالث في مقدمتها لكتاب «سر الماء» (مختارات قصصية)، تجربة الكتابة القصصية عند الربيعي إلى ثلاث مراحل أساسية وهي:

المرحلة الأولى: ما بين 1966 و1968، وتضم ثلاث مجاميع قصصية «السيف والسفينة»، «الظل في الرأس»، «وجوه من رحلة التعب».

المرحلة الثانية: من 1970 إلى 1975، وتضم المجاميع التالية: «عيون في الحلم»، «ذاكرة المدينة»، «المواسم الأخرى».

المرحلة الثالثة: ما بين 1976 و1979، وتضم «الخيول» و«الأفواه». ويمكن أن نضيف مرحلة رابعة وهي التي تمتد إلى 1998، وتضم «صولة في ميدان قاحل»، «نار لشتاء القلب»، «السومري»، «امرأة من هنا.. رجل من هناك».

ـ4ـ

أكيد أن المبدع يستثمر في كتاباته الإبداعية أجزاء من حياته الخاصة، ويدمجها في عالمه الإبداعي، حيث يوزعها على بعض الشخصيات، وهو ما نجده، أيضا، عند المبدع عبد الرحمن مجيد الربيعي الذي اشتغل في كتاباته الإبداعية على تفاصيل حياته، وكثير من الدارسين الذين تعاملوا مع أعماله، وخصوصا الذين يعرفونه بصفة شخصية، أكدوا أن كريم الناصري أو غياث داود مثلا شخصيات تحمل كثيرا من شخصية الربيعي، وهو نفسه صرح بذلك حين حديثه، في سيرته الذاتية الصادرة مؤخرا (2004)، عن بعض الأحداث أو بعض الشخصيات التي يقول انه وظفها في هذه الرواية أو في تلك كما هي في الواقع.. وهو ما دفع بالروائي جبرا إبراهيم جبرا إلى التوقف في سيرته الذاتية «البئر الأولى» عند سن الثالثة عشرة، على اعتبار أن ما تبقى من حياته موجود في رواياته، وليست له أي رغبة في تكراره.. نريد أن نستخلص من هذا الحديث أن المبدع قد يجد أن سيرته الذاتية تحاصره حين تقدمه في السن، فيجد نفسه أمام هذا الإرغام: كيف يكتب سيرته؟ ولعل عبد الرحمن مجيد الربيعي واع بهذا السؤال، وبخطورته الأدبية، ولذلك فقد تعامل مع سيرته بشكل مفتوح، معتبرا أن السيرة الذاتية هي سيرة الآخرين أيضا، وهكذا فقد ألف ثلاثة كتب في هذا المجال وهي كالتالي:

1ـ «من ذاكرة تلك الأيام» (جوانب من سيرة أدبية): يقول الربيعي عن هذا الكتاب: «غايتي من وراء هذه الأوراق التي أقدمها بين دفتي هذا الكتاب هي أن أقدم جوانب من سيرتي الأدبية ومكابدتي ومواقفي وانطباعاتي عن بعض أدباء العربية الذين عرفتهم أو ارتبطت معهم بصداقات، بعضها استمر والآخر انقطع بحكم تقاطع المواقف والقناعات في واقع عربي وعراقي (بشكل خاص) يغلي بالأحداث الفاجعة». إن هذا الكتاب ـ في تقديري الشخصي ـ هو تأريخ أدبي لمسار جيل بأكمله من الكتاب والأدباء والمثقفين، وفيه كثير من الجرأة المفتقدة اليوم، لأنه يقدم للقارئ المتتبع كيفية تشكل الأدب العربي الحديث من وجهة نظر أديب عاش مخاض البدايات، وساهم فيها بشكل كبير، بل كان همها الأساس هو فتح أعين القارئ على تفاصيل غير موجودة في الكتب ولا في تصريحات الأدباء، وقد حطم بذلك كثيرا من الأبطال الوهميين، وساعده على ذلك حضوره الفعلي في الساحة الثقافية، في أواخر الخمسينيات وفي بداية الستينيات والسبعينيات، وتواجده في أماكن توهج الثقافة العربية، وفي ارتباط مع أدبائها، وخصوصا في لبنان ومصر والعراق.. كتاب نحن في حاجة إليه، بل نحن في حاجة إلى أدباء آخرين يكتبون في المجال نفسه لنستوعب بشكل حقيقي سياق الثقافة العربية، ولنرمم خرائب الذاكرة..

2ـ «الخروج من بيت الطاعة» (شهادات أدبية) : كتاب عبارة عن شهادات ساهم بها الربيعي في ملتقيات عربية مختلفة، يتناول فيها كتاباته الأدبية من رواية وقصة، وهي محاولة للإسهام بالتفكير في كتابته، وتتناول أيضا سيرة نصوصه. كيف كتبت، وظروف كتاباتها وسياقاتها العامة، والصعوبات التي واجهتها. إنه تفكير في عمله، وضمنيا هناك إجابات عن كثير من التساؤلات المطروحة على الإبداعات التي ينتجها الربيعي..

3ـ «أية حياة هي؟» (سيرة البدايات): هذا كتاب عن حياة عبد الرحمن مجيد الربيعي كما عاشها في طفولته وصباه بمدينة الناصرية وبغداد. يقول الربيعي في مقدمة كتابه:

«قبل سنوات فكرت بكتابة جوانب من مذكراتي الشخصية، منذ الطفولة وحتى التحاقي بمعهد الفنون الجميلة ببغداد عام 1957؛ وبذا أغطي حوالي 15 سنة أو أكثر، أهميتها في كونها سنوات التكوين ثم إنها مليئة بالأحداث سواء ما تعلق بي شخصيا أو بمدينة الناصرية والعراق كله». إن هذه السيرة تناولت بكثير من التفصيل الحياة اليومية، والعلاقات الاجتماعية بالعراق، في وقت يعتبر مرحلة انتقالية لهذا المجتمع، ولم يكن عبد الرحمن الشخصية الرئيسية في النص السيري، سوى جزء من الأحداث، حيث تم التركيز على المظاهر الاجتماعية والحياة العامة للناس من أكل وملبس وسكن وعلاقات.. وكأن الربيعي بذلك يعيد تشييد مدينة /بلد دمرته الهمجية الأمريكية، وماذا يتبقى للكاتب سوى الأمل والحلم.. سيرة ذاتية تقربنا من زمن بعيد، وتعرفنا بكثير من الجرأة على جزء من التاريخ العربي، وعلى حضارة عريقة، حاولت أمريكا بكل قوتها أن تبددها، وما الكتابة عن الماضي إلا استعادة لما ضاع، واسترداده والإصرار على المحافظة عليه في الذاكرة الجماعية، عبر نصوص سيرية وتخييلية، مثل التي كتبها الربيعي وآخرون مثله..

ـ5ـ

إن كتابة المبدع الموازية لإبداعه تحتل أهمية خاصة في مساره الإبداعي، وخصوصا تلك التي تتناول إبداعات الآخرين في الجنس الأدبي الذي يبدع فيه، وذلك لسببين:

الأول لأنها توضح مجموعة من الخيارات التي يؤمن بها المبدع في كتابته، وبذلك فهي تساعد القارئ على فهم أكثر لما ينتجه إبداعا، لأن تصوراته للجنس الأدبي مدار اشتغاله تطفو إلى السطح أثناء قراءاته النقدية للآخرين.. والثاني لأنها تقدم لنا رؤى مغايرة لما قد يقدمه الناقد المحترف، لأن المبدع حين ينخرط في نقد عمل أدبي ما، يكون عتاده تجربته الخاصة، ويكون بعيدا عن المفاهيم والمصطلحات النقدية الرنانة، لأنه يقرأ بحدسه وبخبرته، وغالبا ما يتناول الأعمال التي أحبها، أو اندهش أمامها اندهاش الطفل أمام العالم.. إن المبدع، في نظري، يملك أسرار العمل الأدبي، غيابه ومتاهاته، الشيء الذي ساعده على القبض على كنه النص الإبداعي، والكشف عن مكامن قوته، ومواطن ضعفه..

ضمن هذه الرؤية تندرج القراءات النقدية للمبدع العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي، الذي اصدر في هذا الإطار مجموعة من الأعمال، وهي عبارة عن قراءات في إبداعات الآخرين، القريبين والبعيدين ومن بينها الأعمال التالية: «الشاطئ الجديد» (1976)، «أصوات وخطوات» (1986)، «رؤى وظلال» (1994)، «من النافذة إلى الأفق» (1995)، «من سومر إلى قرطاج» (1997)، وأخيرا «كتابات مسمارية على جدارية مغربية» (2004)، أعمال تنم عن هذا الاهتمام الكبير الذي يوليه عبد الرحمن مجيد الربيعي لما يبدعه الآخرون، لأنه يدخل في استراتيجية عمله كمبدع من واجبه متابعة جل ما يصدر في المجال الذي يشتغل فيه، وساعده على ذلك عمله في الصحافة، وانفتاح علاقاته على المبدعين في كل الأقطار..

ويمكن تقسيم قراءات عبد الرحمن مجيد الربيعي إلى ثلاثة مستويات:

1ـ الإبداع العالمي: الغرب، وأمريكا اللاتينية، وأفريقيا، وآسيا..

2ـ الإبداع العربي: العراق، سورية، مصر، فلسطين، الجزيرة العربية...

3ـ الإبداع المغاربي: ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا..

أما من حيث الأجناس الأدبية، فالتركيز منصب على الرواية في المقام الأول، وبعد ذلك القصة القصيرة، ثم السيرة والشعر.. وفي كتاب «من سومر إلى قرطاج» نجد الاهتمام بالإبداع التونسي، رواية وشعرا، واضح، مثلما في كتاب «كتابات مسمارية على جدارية مغربية» كتاب بكامله عن أعمال أدبية مغربية، وإذا كان السبب في هذا الاهتمام بتونس أنها مكان إقامته أكثر من خمس عشرة سنة، فالمغرب جزء من الأقطار العربية التي كانت محط اهتمامه منذ عقود من الزمن. حتى في الوقت الذي لم يكن أحد يهتم بالأدب المغربي، كان عبد الرحمن مجيد الربيعي باهتمامه، قراءة وكتابة، الجسر الذي يربط المشرق الأدبي بالمغرب الأدبي..

ـ6ـ

وفي الأخير، لا بد من الإشارة إلى انخراط الربيعي في مجال الإبداع الشعري، وخصوصا قصيدة النثر، حيث أصدر لحد الآن سبعة كتب، وأجدني، هنا، عاجزا عن الحديث عن عالمه الشعري لسبب بسيط هو عدم اطلاعي عليه، وعدم توفري على أي واحد من هذه الكتب.. وأتمنى أن يفسح لي المجال في المستقبل لمعرفة هذه الجهة الأخرى من إبداعات الربيعي، التي أعتقد أنها ستكمل هذه النزهة في حديقة مبدع كبير، كانت كتاباته مدار نقاش لأكثر من أربعة عقود.

*ناقد من المغرب

عبد الرحمن مجيد الربيعي (القدس العربي)

«حوريّة» للروائي التونسي حافظ محفوظ:

عن صديق يكمل قصّة الحبّ!

منال معالج المصمودي*

■ لا تحاول هذه القراءة لرواية «حوريّة» (دار الأطلسية للنّشر. تونس 2005) للتونسي حافظ محفوظ أن تستبطن مفهوم السرّد الـ«نرّسيس» كما ورد لدى ليندا هتشيون، بل إنّ العبارة تخرج هنا إلى فضاء أرحب يمكن أن يعني علاقة الكاتب بنصّه في المطلق. ولمّا كانت هذه العلاقة علاقة عشق ذاتيّ، استعرنا العبارة دون المفهوم نتوسّل بها الاقتراب إلى عالم هذه الرّواية التّي تطرح في الحقيقة مسألة غاية في الأهمية ألا وهي مسألة أصالة البناء. هذه الرواية تحاول أن تصنع بناءها الخاص وهي لا تحاكي مثالا سابقا ولا تدّعي الانتماء إلى نمط متداول في الكتابة، إنّها سليلة الشّعر والقصّة معا وهي إلى ذلك جماع أبنية اشتهرت بها ضروب أخرى من الكتابة. ولعلّ هذا الاختيار الذّي نجد جذورا له في سابق أعمال حافظ محفوظ النّثرية هو ما يجعل هذه التجربة جديرة بالعناية النّقدية. فالكاتب يتوق إلى نصّ مفتوح على شتّى الأجناس من قصّة قصيرة وشعر وسيرة ومقالة ونقد أدبيّ وخاطرة وغيرها... ففي «سيرة رجل عاش يومين» تصبح الرّواية مجموعة متتالية من القصص القصيرة لا يجمع بينها في الظاهر شيء ولكنّ المتمعّن يكتشف أنّها تؤلّف نصاً واحدا يتتبّع سيرة البطل الذي يغيّر أسماءه وصفاته وفق ما يقتضيه المكان والزّمان والأحداث. ويحتوي الكتاب على فصول عديدة يمكن قراءتها على أساس أنّها مقالة أدبية. يقول: «كنت بصدد كتابة هذه المقالة وكان موضوعها الشّعر واللاّتواصل وهي عبارة عن جملة من الملاحظات حول ما يكتبه الشّاعر والمسرحيّ بول شاؤول».. وفيه نصوص هي إلى الخبر أقرب منها إلى القصّة. يقول: «عن صاحبي، عن ابراهيم السمّاع ،عن أخيه صاحب الديوان، عن السّامريّ حافظ المخطوط في مكتبة الأمير والي مدينة هزار أفسان الواقعة في الضفّة العليا لبحر العرب أنّه قال»...

تداخل الأجناس

وفي كتاب «غزال الأندلس» نجد الكاتب بصدد تتبّع سيرة الشّاعرالمعتمد بن عبّاد في مقطع وكتابة قصيدة حرّة على وزن المتقارب في مقطع آخر يقول: «سماء محاصرة بالنّيازك، أركب بحرا وأترك للطّير صوتي ليسقط عنّي الصّدى شجرا وبيادر، خذني إليك. أقول له أيّها البرق خذني»... والأمر ذاته يتكرّر في باقي الرّوايات من «ارتباك الحواس» و«حارس الملائكة» و«مكعّب الحكمة» إلى رواية «حورية». هذه الأخيرة لا تخرج عن هذا الاختيار الذي صار خصيصة تميّز روايات حافظ محفوظ القادم من الشعر وقد نشر سبع مجموعات شعرية . والحقيقة أنّ الرّوايات التي التزم فيها أصحابها بمثل هذا الاختيار نادرة جداً إن لم نقل أنّها منعدمة. فقد يطعم الرّوائيّ نصّه بالشعر وقد يبنيه على شاكلة الخبر القديم وقد يجعل منه فسيفساء لقصص قصيرة، ولكن لم نتعرّض لتجربة متكاملة تجعل من تداخل الأجناس قاعدة يسير عليها في كلّ رواياته.

إضافة إلى ما تقدّم، نلمس لدى حافظ محفوظ خصيصة أخرى تتكرّر أيضا وتتعمّق من رواية إلى أخرى ألا وهي ما يطلق عليها النقّاد «العوالم الميتاقصيّة» وإن كان المجال يضيق هنا بتفصيل الحديث فيها، فإنّه يمكن إيجاز القول في هذا النمط من الكتابة بأن نعرّفه كالآتي «من ميزاته البارزة عدم اتكّاء طبيعته الإحالية كليّا على محاكاة الواقع أو العالم الخارجي، إنّما تستولد عوالمه الخاصّة من واقع الكتابة نفسه».

ولـ«ميتاقص» كما يعرّفه ويليام غاس «هو القصّ الذي يجذب الانتباه إلى نفسه، كونه صنعة ليطرح أسئلة عن العلاقة بين القصّ والواقع» وفي رواية «حورية» نجد الكاتب يجدّ في لفت الانتباه إلي وضعيتها القصّية وإلى أسباب نشأتها وتكوّنها، بل إنّه يورد فصلا كاملا يعنونه بـ«نقد ذاتيّ وتصحيحات» يتحدّث فيه عن الرّواية ذاتها ويوجّه ملاحظات عديدة لتشكّلها ولفقرات منها وفي فصل آخر يفشي أسرارا تخصّ الكاتب وهو يكتب روايته والتّعديلات التي قام بها ليستوي عمله كما خطّط له من قبل، أي عندما جالت في ذهنه الفكرة الأساسية.

البداية عند النهاية

وما دمنا نتحدّث عن هذه الفكرة الأساسية فلا ضير من التّعريج عليها بإيجاز الآن لأنّنا نضعها أيضا في سلسلة الخصائص التي تجعل من روايات حافظ محفوظ أعمالا أصيلة شكلا ومضمونا. تقدّم لنا الرواية بطلا فريدا، غير مألوف يعيش حكاية حبّ عميقة ولكنّه بسبب مرض عضال يقرّر الانفصال عمّن يحبّ ويطلب من صديق له أن يكمل قصّة حبّه لهذه المرأة ومن هنا تبدأ الأحداث في التّصاعد وفي التشتّت في آن. فالصّديق الذي اختاره البطل ليس شخصا عادياً هو الآخر. فبمجرّد سماعه لطلب صديقه الغريب ينخرط في سرد حكايته الشخصية. هذا السّرد سيكشف لنا أسرارا أخرى تقدّم لنا على أساس أنّها سيرة حياة غير عاديّة يتكفّل الكاتب بنسجها بشكل مشوّق جداً فننسى في أثناء ذلك الحكاية الأولى التي نكتشف فيما بعد أنّها ثانوية. وتبدأ بعد ذلك سلسلة من القصص الجانبية المرتبطة ببعضها البعض بشكل محكم بحيث تعرض أمامنا حكايات تاريخية عن ملك تونس أحمد باي وعن ابن خلدون وغيرهما ثم نجد أنفسنا أمام شخصيات أخرى يمكن أن تشكّل إن جمعناها مجتمعا مضطربا تنمو داخله قيم جديدة تكاد تعصف به. الرواية تبدأ حين تنتهي. فبمجرّد أن تكمل قراءتها حتّى تنهال عليك أسئلة عديدة:

ـ كيف استطاعت هذه النّصوص المتفرّقة أن تصنع نصاً شديد التّماسك والتّكامل؟

ـ ما هو الرّابط المنطقيّ الذي يؤلّف بينها؟

ـ كيف يمكن لكلّ تلك الشّخوص رغم بعدها عن بعضها في الزمن والمكان أن تتعاون على فعل ضمنيّ واحد قام به سعيد بن عيسى في لحظة مجنونة؟

ـ هل أنّ رواية «حوريّة» هي رواية شخص أم رواية جيل أم رواية بلد كامل ينظر إلى نفسه في المرآة؟

أسئلة كثيرة لا تملك أمامها إلاّ أن تعيد القراءة من جديد لتكتشف أنّ فتنة هذه الرّواية تكمن أوّلاً في قدرتها على شدّك إليها وفي لغتها الشّعرية المنسابة وفي أصالة بنائها المميّز. ومن المسائل الجديرة بالاهتمام أيضا مسألة الرّاوي والمرويّ له في هذه المتاهة السرديّة. فإذا كان الفصل الأوّل يقدّم لنا شخصيّتين بلا أيّ تعريف لهما، واحدة تروي والأخرى تنصت للحكاية، فإنّ ذلك سيغيب في الفصل الثّالث والرّابع والخامس لتتولّى شخصية أخرى رواية الأحداث بالتّعاقب مع الرّاوي الأوّل ثمّ ينقطع كلّ ذلك لتوكل الرّواية إلى ضمير المتكلّم الجمع النّائب عن إخوة سعيد بن عيسى لتقصّ علينا سيرة طفولته قبل أن ينتقل للعيش مع حورية حيث يصبح سعيد نفسه الرّاوي. ليس ذلك فقط. إذ نجد أنفسنا في ستّة مقاطع مكتوبة بخطّ مغاير عن الخطّ الأصليّ للنصّ أمام راو آخر هو محمّد الصّادق باي الذي يروي لنا أحداثا تعود إلى سنة 1923 . هذا إلى جانب تلك الفصول التّي يتولّى الكاتب نفسه التّعليق عن الأحداث.

هذا التّغيير المتواصل للرّاوي له ما يبرّره في إطار الحكاية الكبرى ولعلّ مبدأ الحضور والغياب هو الذي شرّع لذلك. لكنّ الملفت للانتباه هو أنّ أسلوب الحكاية يتغيّر من راو إلى آخر فيتغيّر بالتّالي الإيقاع وهو ما يجعل قراءةً هذه الرّواية قراءة بعيدة عن الرّتابة ومحكومة بالتحوّل والمفاجأة.

«حورية» تقدّم نموذجا سرديا متميّزا يفتن قارئه ببنائه الفريد ولغته الشّعرية الخاصّة وكذلك بهذا السّحر الخاصّ الذي ينبع من الحكاية ذاتها. إنّنا أمام عمل فنّي رائع لروائيّ ننتظر منه الكثير: هو حافظ محفوظ.

* جامعية من تونس

ملف موسع عن العالم العربي بين التنمية المنشودة والحقوق المهدرة في العدد الجديد من مجلة «حصاد الفكر»

القاهرة ـ «القدس العربي»:

صدر العدد الجديد من مجلة «حصاد الفكر» متضمنا ملفا واسعا تحت عنوان «العالم العربي بين التنمية المنشودة والحقوق المهدرة» وتقول مقدمة الملف إن الحديث عن التنمية في العالم العربي ضمن منظومة الدول النامية ليس أمرا سهلا، لذلك لا بد من وضع عدة أمور في الاعتبار يمكن على ضوئها تحديد موقع العالم العربي على خريطة التنمية المنشودة في علاقتها بمجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية والمعرفية التي تمثل مناخا دافعا أو عائقا لهذه التنمية، وترى المقدمة أن الإنسان العربي هو المحدد رقم واحد لحركة التنمية في أهدافها ومجرياتها باعتبارها هدفها، والقائم بها في آن واحد، ومن ثم لا يمكن إغفال وضع هذا الإنسان، ومدى تمتعه بحقوقه الإنسانية والسياسية في إطار مواطنته، وما يرتبط بها من التزامات وامتيازات يتحرك بها وفي إطارها هؤلاء المواطنون للتطوير والنهوض وترى المقدمة أن مفهوم التنمية لا ينفصل عن الكلام عن حقوق الإنسان حيث إن التنمية الحقيقية هي التنمية البشرية أي التي تراعي صالح الإنسان والمواطن وتخدم أهدافه، وتلبي احتياجاتها الأساسية، وفي مقدمتها الاعتراف بحقه في تحديد واختيار ممثليه والناطقين باسمه تحت قبة البرلمان وفي المجالس المحلية المختلفة. يتضمن الملف قراءة في تقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وعرضه عمر راشد ويعكس التقرير صورة قاتمة لحال كثير من دول العالم، خاصة البلدان النامية التي تعاني فقرا شديدا، وتدهورا بمستوى معيشة سكانها الذي أصبح أسوأ بكثير مما كانت عليه عام 1990. ودعا التقرير الدول الغنية إلى احترام تعهداتها بمساعدة تلك الدول لكبح غول الفقر الذي يقتل طفلا كل 3 ثوان في العالم.

يتضمن الملف أيضا تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية لعام 2005 الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام وعرض له علي عبد الفتاح الحاروني. كما عرض عمر راشد تقرير ومؤشرات التنمية في أفريقيا لعام 2005 وهو صادر عن البنك الدولي بواشنطن. وقدم علي عبد الفتاح عرضا لتقرير حالة حقوق الإنسان في الوطن العربي وهو صادر عن المنظمة العربية لحقوق الإنسان في العام الماضي، وعرضت ناهد محمود عرنوس لكتاب العمال ورجال الأعمال تحولات الفرص السياسية في مصر وهو من تأليف ناهد عز الدين عبد الفتاح وصادر عن مركز الأهرام للدراسات السياسية، وعرض منتصر محمد عفيفي لكتاب التسامح في الفكر الإسلامي الذي حرره الدكتور جعفر عبد السلام وصدر عن المركز العلمي للطباعة، كما عرضت هالة عبد التواب لكتاب الإسلام في العهد المدني والخصومات القديمة المتجددة وهو من تأليف صابر عبد الرحمن طعيمة. كما قدم العدد عرضا لكتاب التخطيط الاستراتيجي الناجح لمؤلفه ستيفن هاينز وهو صادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وعرض الدكتور خالد فهمي لكتاب الانتصار القرآني لأبي بكر الباقلاني وحققه عمر حسن القيام وصدر عن مؤسسة الرسالة ببيروت، وقدم أيضا خالد فهمي قراءة لكتاب السلام الصليبي.. الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي. كما عرض محمد زين العابدين كتاب الدكتور شاكر عبد الحميد كتاب «عصر الصورة» الصادر عن سلسلة عالم المعرفة وعرض ناصر رمضان لكتاب الإبداع الشعري عند الحضيري. دراسة مضمونية وفنية وهو بالأساس بحث مقدم إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.

يقع العدد الجديد من حصاد الفكر في 130 صفحة من القطع الكبير وتصدر عن مركز الإعلام العربي ويترأس تحريرها الكاتب صلاح عبد المقصود.

طرَقتُكَ يا بابُ

فضل خلف جبر*

وكُنْتُ كُلَّما...
تُوغِلُ في صَمْتِكَ المُغلَقِ بالأسماءِ
يا بـابُ!
طَرَقتُكَ مُنْذ لمْ يكن آدمُ
وَحينَ كانَ البحرُ مُجرَّدَ غَيمَةٍ تَطفو على زُرقَةِ الفَضاءِ
وَحينَ لَمْ تَتَوالدِ الطُفيليّاتُ بَعدُ
ولَمْ يَتّفِقِ الناسُ على تقديسِ